مخبر العلوم الاسلامية في الجزائر

فرقة البحث PRFU

النزعة الروحية في الأديان ودورها في إرساء قيم التعايش

والسلام العالمي ونبذ التطرف والغلو

الندوة الوطنية حول:

البعد الإنساني في الفكر الصوفي ودوره في نشر الإسلام

المحور الخامس : دور التصوف في نشر الإسلام في أروبا وأمريكا

عنوان المداخلة:

حضرة عنايت خان والتصوف العالمي

اللقب والإسم : كبيسي عبد الوهاب

الدرجة العلمية: طالب دكتوراه_أصول الدين_عقيدة

الجامعة:كلية العلوم الإسلامية _جامعة الحاج لخضر باتنة 1 .

البريد الإلكتروني: wahaab.dz@gmail.com

رقم الهاتف: 077.7263.40.50

ملخص:

تتناول هذه المداخلة شخصية حضرة عنايات خان، نشأته وأهم أفكاره حول التصوف العالمي، الذي يعد من مؤسسيه، وبيان منطلقاته الإنسانية التي استند اليها، ومن ثم وجه مساهمته في نشر التصوف الإسلامي وعلاقته به، ومدى توافقه معه،كل ذلك من خلال منهج تحليلي نقدي مقارن.

Abstract:

This intervention deals with the personality of Hazrat Inayat Khan, his upbringing and his most important ideas about global Sufism, who is considered one of its founders, and expound his human principles on which he relied, Moreover, his contribution to spreading the Islamic Sufism and its relationship to it, and its compatibility with it, all through a comparative, critical analytical approach.

مقدمـــة :

إن تمثّلات الإله والرّوح الحاضرة في الوعي الإنساني في مختلف الخبرات الدينية والانسانية ناتجة عن فكرة "أن وعي الزمن المتسلسل وتواريه اللاّمعوض هو الذي يمنح الإنسان وعي الخلود والأزلية لإله متعالٍ، إنها نسبية الأمور الإنسانية التي تفرض عليه الإيمان بالمطلق الإلهي في شيء مبهم يرسم حد المعرفة العقلية في الفضاء الديني، فالدين هو خبرة الخفي، يتحقق عندما ينفتح الإحساس على مؤثرات الحقيقة الأزلية التي تظهر عبر حجب الزّمني، هناك إذا الحقيقة التي في عمق أي معرفة و أي تخيّل صوفي، وهناك أساس التصوف في الدين"[1].

يعد التصوف طريق الوصول إلى الإنسان الكامل ومن ثم إلى الحقيقة التي تتجلى له، و الذي يتمتع بأعلى مراتب النضج العقلي والروحي، لقد وُجد التصوف عند مختلف الأديان والمذاهب، لذلك اعتبر نزعة إنسانية لا يحصرها معتقد ولا ملة، وتبعا لذلك اختلفت أشكال هذا التصوف وتفاصيله باختلاف انتماءات مريديه، ولا شك أن التصوف الإسلامي علامة بارزة وشكل فريد من أشكال التصوف، وهو مورد هام لأشكال أخرى منه، كالتصوف الإنساني أو العالمي، الذي نتناول أحد شخصياته ومؤسسيه، وهو حضرة عنايات خان، فما هي أهم أفكار هذه الشخصية؟ وما أهم تعاليم هذا التصوف الجديد؟ وما مدى توافقه وانسجامه مع التصوف الإسلامي الأصيل؟، نظرا لأهمية هذه التساؤلات وأخرى سأحاول عرض وتحليل أهم الأفكار مرفقة بنقد يخدم التساؤل الأخير.

---

[1] ميشال مسلان، علم الأديان: مساهمة في التأسيس، ترجمة عز الدين عناية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2009،2 ،ص75 .

أولا: حضرة عناية خان (Hazrat Inayat Khan) (1882- 1927) ؛ متصوف هندي ومؤسس حركة التصوف العالمي، وهي حركة تسعى لتوحيد الأديان والشعوب من خلال نزعة التصوف الانساني، نشأ عناية خان في بيت من أهل الموسيقى والشعر وكان عاشقا لها، إذ بها وفيها كان يتوجه الى الله، انجذب الى الصوفية وكان مريدا في التشيشتية والقادرية والنقشبندية ثم السهروردية، ليكوّن بعد ذلك تصوفا خاصا به، انطلق يبشر به نحو الغرب، داعيا إلى وحدة البشرية وحرية الروح.

على الرغم من أن عناية خان ينحدر من أسرة مسلمة إلا أن التصوف الذي قدمه للغرب كان غريبا الى حد ما عن التصوف النمطي السائد في العالم الإسلامي، إذ كان يعتقد بكونية التصوف الذي تتجوهر فيه الحقيقة الباطنية الدينية الواحدة التي تحملها جميع الأديان بالرغم من اختلافاتها الظاهرية، ويكمن الفضل الأكبر لعناية خان في أنه أدخل الى العالم الغربي تلك المنظومة الفلسفية التي لم تكن في ما مضى سهلة المنال إلا للمسلمين، فقد أوجد أسلوبا لتغيير طريقة تقديم الأفكار الصوفية إلى العالم الغربي.[1]

ثانيا: التصوف عند عناية خان:

يرى خان أن الصوفية نزعة انسانية ثمرة النور الإلهي المركوز في النفس البشرية،" تعاليم قديمة جدا حول الحكمة والسكينة "[2]،وهي أصيلة سابقة على نزعة التدين، فما من دين يظهر الا وجوهره وغايته الأسمى التصوف، وليس الغرض المساواة بين تلك الأديان اطلاقا، فلكل دين مكانته واحترامه، لكن تلك الأديان تعاني من ضمور واختفاء للحكمة الأصيلة مع الوقت وتسلط البشر، ما يتطلب على كل متدين أن يبحث عنها في كنه دينه، وهذا الجهد يبذله المتصوف السالك، أما الرّند وهم قسم آخر من المتصوفة، فقد بلغوا الكمال

[1] عزيز الكبيط ادريسي، التصوف الإسلامي في الولايات المتحدة الأمريكية، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2013، ج1، ص144 .

[2] عنايت خان، تعاليم المتصوفين، ت ابراهيم استنبولي، دار الفرقد، سورية، ط2، 2008، ص23 .

وأصبحوا هم المثل العليا وتمظهرا لها، فلا يحتاجون الى الالتزام بضوابط أو مبادئ لأنهم وصلوا الى حد الحرية. " فالصوفي تلميذ لكل معلم، ومريد لكل دين، وهو من يحاول إدراك الحكمة في جميع تجلياتها"[1]، لأن السعادة في الاتحاد، كما ينزع الإنسان وينشرح بالزواج و بالمعانقة والاحتضان، والإقبال على المصافحة وتعطش جلوس المتعلم الى المعلم، كلها مظاهر اتحاد مادي وروحي، تسعى نحو هدف الكمال والانتشاء به.

إذن " ديانة الصوفي المحبة فقط، لذلك فان شروط الأديان الأخرى غير مهمة بالنسبة له، أما الصراع من أجل المبادئ فهو يتركه في عهدة أولئك الذين لا يقدرون أن يروا ما هو أوسع من حدود أفكارهم الخاصة "[2]، هكذا يكون التصوف العالمي أو الإنساني تجاوز وتعال على الحدود الدينية التي لم تعد ترق وتشبع تطلعات الصوفي، كونها تشكلت بفعل التسلط والهيمنة، لذلك فإنها لم تعد منطلقا بذاتها لتأسيس وحدة عالمية أو دين كوني، إن كل دين ينشأ وفق ظروف واقعية تاريخية نسبية خاصة، إذ أنه يحمل ثقافة مغرقة في الخصوصية تحجبه عن سماء العالمية.وما الأديان إلا مظاهر للكينونة الأزلية متطورة عبر الزمن.

ثالثا :المراحل المختلفة للتطور الروحي:

يستلهم خان من الفلسفة الهندوسية ثلاثة مفاهيم يصف بها مراحل التطور الروحي :

هتما Atma أو الروح الشاملة، المهاتما Mahatma وهي الروح العظيمة، و باراماتما Paramatma وهي الإنسان الإلهي أو الإنسان المدرك للإله؛ على أساس المفهوم الأول يقسم البشر الى بشر حيوانات وبشر شياطين وكائنات بشرية، أما المهاتما حياته مكرسة لفعل الخير والإحسان، إنه يفكر في غيره قبل نفسه،لا ينتظر المديح والشكر والتكريم على أفعاله، فهو متحد من جهة مع الله ومن جهة مع العالم، و يخوض صراعا مع نفسه والظروف والأناس المحيطين به، ويقدم دروسا في التضحية والتبجيل والتسليم والرضى، البارامتا هي أعلى مراحل يقظة الوعي، فالإنسان العادي يولي أهمية أكبر للعالم وأقل للإله،

---

[1] المصدر نفسه ، ص25 .
[2] المصدر نفسه، ص28 .

والمستنير يولي أهمية أكبر للإله وأقل للعالم، أما الباراماتما ففي نفس الوقت يقيم ولا يقيم أهمية للعالم وللإله، إنه هو ما هو، جامع للتناقضات ومستوعب لها، لا تسعه اللغة فيصبح هو ذاته المعنى المبحوث عنه[1].

رابعا : تعاليم المتصوف :

من خلال كتابه تعاليم المتصوفين يمكن إيجاز أهم أفكاره التي تبرز تصوراته الصوفية حول الإله، الوجود والإنسان، ثم وفقا لها يذهب لإعطاء تعاليم تخص كل من يريد الانضمام لهذا الطريق من التصوف.

- لابد للمتصوف أن لا تتوقف نظرته الى العالم عند الظاهر، لأن الحقائق موجودة خلف ظواهره، وحين يبلغ الإنسان "النيرفانا"[2] فان نظرته الداخلية ستتفتح، ويختفي الفارق بين "الأنا" وال"هو"، عندئذ سيكتسب المتصوف القدرة على المعرفة والفهم.
- على الإنسان أن يتعلم كيفية ضبط نفسه من خلال تدريبات الجلوس الطويل والصوم وتنظيم الأكل، والسيطرة على التفكير والنسيان.وأن يمتلك رقابة على جسده تمكنه من تجنب الوقوع في العجز لأنه أكبر عدو للإنسان، ولا يمكن تحقيق كل ذلك إلا بالصبر. فالانجاز الروحي يتطلب إنجازا بدنيا أولا، لأنه لا يمكن لمن لا يتحكم في جسمه أن يتحكم في نفسه.
- أن يتمتع الإنسان بالصحة يعني أن يكون صاحب فكر ومشاعر عميقة، مقدرا للحياة، يغمره الفرح اتجاهها، ويجيد فن العيش محافظا على النظام و التناغم في خضم الحياة.
- الهارمونيا أو التناغم هو ما يخلق الجمال، لذلك لا بد أن لا يقاوم الشر، أي أن لا يرد بمثله وإنما أن يكتفى بالصمود أمامه لئلا يساهم في ازدياد اللاتناغم إذا ما رد عليه.
- "الفلسفة نفسها التي بلغت أعلى نقطة في معرفة الله"[3] غالبا ما تضيع بسبب غياب التوازن. والإتزان هو حالة تطور فرداني وانتباه إلى الآخرين. نتعلم التوازن عن

---

[1] تعاليم المتصوفين، مصدر سابق ، ص38 .

[2] نيرفانا : مفهوم في الديانات الهندية باللغة السنسكريتية، يعني الانطفاء والخمود، يعبرعن حالة انصهار الأنا الفردية في الوعي الكوني.

[3] تعاليم المتصوفين، مصدر سابق، ص 71 .

طريق مراقبة حركة الجسم والوضعيات والاتزان بين الحالات المتناقضة، النوم واليقظة، العمل والراحة، الصوم والأكل ... وكذلك التوازن العقلي بواسطة التركيز والتحكم في الأفكار.

- الصراع تارة والوداعة تارة أخرى حصيلة الحكمة أو الحب، لابد للإنسان أن يستكين لمشيئة الرب وأن يتسم بالحلم والسكينة والرضى، وأن يعرف متى يستعمل المواجهة إذا سنحت له الظروف (ليست الروح الثورية دائما مفيدة).
- ليس نكران الذات مقصودا لذاته وإلا لما تظاهر العالم؟.الإيثار نوع من نكران الذات ولا يكون إلا ومعه الرضى والغبطة، هذا النكران لا يُتعلم وإنما يحصل تلقائيا حين تتطور الروح وتعرف قيمة الأشياء الفعلية.
- جاذبية الشبيه نحو الشبيه (قرابة الدم وتشابه المهنة وتشابه المواصفات) وجاذبية المتناقضات(الرجل والمرأة) تعد قوانين للجزاء أو العقاب، فالطيب يجذب إليه كل طيب.العقل الإلهي ينسكب فينا فهو موجود في الروح والمادة.
- ثنائيات المتناقضات: الله يحتوي في ذاته كل شي، ففيه الخير والشر، فهو ليس خيرا محضا[1]. ليس مهما بالنسبة للصوفي التفريق بين المتناقضات لأنه يعلم أن وراءها الواحد الأحد. قانون الرجرجة والاهتزاز مفاده أن التناقضات تظهر فقط على سطح الوجود بينما في مستوى آخر هي متحدة، أيّ إخلال بالتوازن في السطح سيرتد على صاحبه بالعقاب[2].
- يقول المسيح عليه السلام: "لا تقاوموا الشر"، الشر هو ما يعوزه التوافق والانسجام والحب و الجمال.علينا أن لا نلاحظه حتى لا ندخل في كفاح معه.إن فهمنا لذواتنا وطبيعتها يجعلنا لا ندخل في كفاح مستميت معها تنفد معه طاقتنا وتضيع. إن الفهم يقلل الكفاح، فالشر لا وجود له، إنه ظل للخير، لذلك اعتاد الإنسان القديم أن يطلق اسم الله على كل ما خير وطيب، واسم الشيطان على كل ما هو شرير، إنها محاولة منه للتفرقة بين الأمور، أما الحقيقة فلا وجود الا للرب.

---

[1] تعاليم المتصوفين، مصدر سابق ، ص109 .
[2] المصدر نفسه ، ص111 .

- لابد من الإيمان بالعدل الإلهي بالرغم من كل البراهين التي توحي بعكس ذلك، "سَمت الحكمة "هي مستوى يبلغه الحكماء عندما يرون العدل الإلهي عن طريق الحب وليس عن طريق دراسة القانون الطبيعي أو الحسم العقلي. إن الله هو الحب أما العدالة فطبيعته(العدالة تنبع من عقلانية الإله)، "لا يوجد شخصان يختلفان في المبدأ الحياتي التالي: كل روح تبحث عن الجمال، وإن كل فضيلة وكل تقوى، وكل فعل خير، إنما هو عبارة عن بريق الجمال "[1]، لذلك فالدين واحد.
- الإمتياز أن تكون إنسانا، الإنسان أكثر كائن قابلية للسعادة والفرح والسلام، إنه على شاكلة الرب وهذا امتيازه، حيث في قلب الإنسان يظهر أفضل ما أبدعه الله. فالإنسان بذرة الرب، خلقه على شاكلته ومهما تعددت أهداف ورغبات البشر فهدفهم الأخير واحد وهو الله.الإنسان ذروة الخلق والكون يتظاهر في قلبه.
- القدر يولد مع الإنسان وفي نفس الوقت هو نتيجة سلوكه، الإيمان بالقدر والإرادة الحرة لا يكون إلا بالاعتقاد أن الماضي بكل آلامه ما هو إلا جزء من المصير وقد مضى ونحن أحرار منه، ثم الاعتقاد أن الإرادة الحرة تعني أن كل ما سيجري في الحاضر والمستقبل سيكون نتيجة لها، وأن نعتقد أن كل ما هو جيد ينتظرنا في الأمام، لذلك هناك بعض الحقيقة في الكارما.
- الحياة بعد الموت،كما الطيور تصنع أعشاشها فالنفس تصنع مصيرها الأخروي، الظهور وهم جميل يضع على النفس أغلفة كلما زادت زادت نشوة النفس بابتعادها عن مصدرها، ولتحقيق السعادة وليس النشوة يحب التخلص من تلك الأغلفة والدخول في تغيير يحدثه الموت،وهذا ما يسمى بالصحوة أو اليقظة.[2]

التصوف الإسلامي والتصوف العالمي:

- العقل رغم كونه المشترك الإنساني الأبرز، إلا أنه في فضاء التصوف ليس المعول عليه في إدراك الحقيقة، وقد اعتبر صوفية المسلمون الإرادة _لا العقل_ جوهر الإلهية، كما اعتبروا الإرادة _لا العقل _ جوهر الإنسان، فالإرادة عندهم نقطة الابتداء من جهة ونقطة الانتهاء من جهة أخرى، إذ بها يثبتون وجودهم وبها يتصلون

[1] المصدر نفسه ، ص126 .
[2] تعاليم المتصوفين، مصدر سابق ، ص 170 .

بمطلوبهم وهو الله، ...بل إن المعرفة التي أطلق عليها المتصوفون اسم الذوق ليست هي الأخرى عملا من أعمال العقل الواعي ولا مظهرا من مظاهره، بل هي مظهر من مظاهر الإرادة والوجدان، مظهر من مظاهر الاتصال الروحي الذي هو أشبه بالاتصال البدني، ولهذا لا تخضع المعرفة الذوقية لمقولات العقل ولغته ومنطقه[1]، ولم يبتعد عناية خان عن هذا المبدأ كثيرا، ما يجعله يتجاوز في دعوته المشترك الإنساني العقلي إلى مشترك آخر وهو الإرادة، أين تختفي فيه التصنيفات بين ما هو غربي وشرقي، وهو ما يعتبر نقطة انطلاق قوية لتأسيس فكرته عن الوحدة العالمية.

- يعرف التصوف عند المسلمين بأنه " الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق"، الحقائق مقابل الرسوم الشرعية: وليس المراد هنا الأخذ بباطن الشرع وحده دون ظاهره[2]، فالشريعة إذن طريق الوصول والالتزام بها شرط ضروري، بينما في التصوف العالمي عند خان لا نجد التعبيرات الصوفية الإسلامية الأصيلة حاضرة، لأنها بالنسبة له شيء ثانوي لا يشترط حضوره، فالصوفي عنده يمكن أن يكون من أي دين مهما كان، لأن العقائد والشرائع حواجز يجب تجاوزها نحو الحقيقة الكامنة خلفها. لقد استلهم خان في تعاليمه من أفكار الديانات الهندية والمسيحية أكثر بكثير مما استلهمه من الإسلام، هكذا تسقط صفة الإسلامية عن مثل هكذا توجه.
- ليست الشريعة فحسب ما يتجاوزه خان نحو تحقيق المعرفة، بل فكرة الوحي ونصوصه أصلا، متوجها نحو الطبيعة، مطلقا خيالات تأمله بحثا عن فلسفة يؤسس بها ما يحقق هدف الوحدة، إنه يريد أن يطال الغيب والوجود الخفي المحجوب بخيالاته تلك وتأملاته، إذ لم تعد فكرة النبوة السبيل الوحيد نحو المعرفة الإلهية والغيبية كما قرر ذلك الإعتقاد الإسلامي، بل التجربة الإنسانية وهيجان انفعالاتها، فالمتصوف العالمي "يسعى نحو الوصول إلى الهارمونيا والإتحاد مع الآخرين ولا يبحث عن الفوارق"[3]، تلك الفوارق التي تختفي معها ثنائيات الحق والباطل، الصحيح والخطأ.

---

[1] أبو العلا عفيفي، التصوف الثورة الروحية في الإسلام، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، دط، 2020، ص20/19 .

[2] المصدر نفسه، ص 37 .

[3] تعاليم المتصوفين، مصدر سابق ، ص31 .

- إذا كان الإعتقاد الإسلامي قد قرر أسمى صور التوحيد والتنزيه للذات الإلهية، فإن التصوف العالمي يسعى للبحث عن أبعد صور التوحيد للوجود الكوني، إنه يحاول أن يجمع ويوحد ما لا يقبل في طبيعته ذلك، لذلك لم يجد طريقا غير أن يجعل هذا العالم هو نفسه الإله، لذلك يقول: "إن الإنسان المتعبد الذي يسعى كي يرفع مثال الله إلى أعلى الدرجات بواسطة العبادة والصلوات، سيضطرب إذا ما أوضحنا له أن كل ما اعتاد اعتباره شريرا ومشينا، هو عبارة عن جزء من الذات الإلهية"[1]. حتى رغبات الإنسان مهما كانت هي تمثل إرادة الله، "الإله يريد ما نحن نرغب به، لو أن الله أراد شيئا مناقضا لرغبتنا، لما كنا نحن احترمنا هكذا إله،هو ضدنا دائما، فوق ذلك ، لا يوجد أي مغزى لمناقضة مساعي الإنسان"[2].

- إن جهود حضرة عناية خان سعت لتأكيد فكرة "أن المشابهة التامة بين أغلب مسائل التصوف الإسلامي وبعض الفرق الهندية جعلت بعضهم يذهب الى أن التصوف وليد التفكير الهندي"[3]، وهذا ما يبدو واضحا من اقتباساته واستلهامه من أفكار الديانات الهندية و المسيحية، مع ذلك فإن تصوفه ارتقاء فوق فكرة الدين الحق، فإن كانت نزعة التصوف نزعة إنسانية فإنها دليل على الاحتياج والمطلب الديني، كون الدين هو المعني بسياسة الغيب وما هو كلي، إذ لا يمكن التوغل في المسلك الصوفي يمنأى عن أي هداية دينية، لأن ذلك يجعله مجرد تجربة إنسانية حدودها الشعور والخيال.

خاتمة :

---

[1] تعاليم المتصوفين، مصدر سابق ، ص 109 .

[2] المصدر نفسه، ص92/91 .

[3] قاسم غنى، تاريخ التصوف في الإسلام، ترجمة صادق نشأت، دار نينوى، دمشق، ط1، 2017، ص16 .

يعتبر حضرة عناية خان من أوائل من ساهم في نشر التصوف في العالم الغربي والأمريكي خصوصا، أين يعيش هذا العالم حالة تيه روحي وتخبط قيمي، متعطش لكل ما يلبي حاجته الروحية، ما أكسبة حظوة في الانتشار والقبول؛ لقد أسس خان لتصوف عالمي يقوم على قبول كل الأديان والجمع بينها بغرض التوحيد لا التفرقة، إذ أن الحقيقة كامنة في جوهرها كلها، ولا شك أن سيرته وأفكاره هذه جعلت التصوف الإسلامي يصل الى أقاصي بعيدة، بالرغم من ذلك لم تكن تعاليمه ذات سمة إسلامية خالصة، لقد كان تصوفا أقرب الى الديانات الهندية التي عاش في بيئتها.

- **مصادر ومراجع:**

- أبو العلا عفيفي، التصوف الثورة الروحية في الإسلام، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، دط، 2020.
- قاسم غنى، تاريخ التصوف في الإسلام، ترجمة صادق نشأت، دار نينوى، دمشق، ط1، 2017.
- عزيز الكبيط ادريسي، التصوف الإسلامي في الولايات المتحدة الأمريكية، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2013.
- عناية خان، تعاليم المتصوفين، ت ابراهيم استنبولي، دار الفرقد، سورية، ط2، 2008.
- ميشال مسلان، علم الأديان: مساهمة في التأسيس، ترجمة عز الدين عناية،، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2، 2009 .